مؤتمر الحوار الوطني.. يدشن سنة أولى حوار

عبدالله القفاري

من المؤكد ستواجه فكرة الحوار، جملة عوائق، منها ما كان ضمن أجندة ثقافية يعمل عليها البعض، ممن يقفزون على حقائق الوطن وشروط المواطنة وعلاقات العالم من حولنا.. حتى يترآى لهم أنهم يعيشون في عالم من صنعهم.. ولهم أن يقرروا في ما يشاؤون.. وهؤلاء لا يدركون حتماً المخاطر التي تتهدد أي كيان يترك الفرصة ملائمة للعبث بالوحدة الوطنية..

من حق أي مثقف سعودي أن يبتهج بلقاء كهذا. ومن حقه - بغض النظر عن التحفظات التي قد يبديها حول التنظيم وادارة الحوار وعناصره - أن يعتبر مثل هذه الخطوة معلما على الطريق الصحيح طالما انتظرها مثقف حر.. لا يعنيه شيء قدر ما يعينه وجه الوطن والإنسان.

من الواجب اليوم، أن تتحرك النخب المثقفة في السعودية، لتبارك توجها كهذا، لا لتصمت وتتحفظ وتراقب.. حتى لو بدا ان مشهد الحوار ضيق أو مقنن أو مقتصر على شرائح من مثقفين وعلماء نكن لهم كل الود والتقدير.

على المثقف السعودي الحر، أن يخرج من صمته، وأن يبارك خطوة كهذه، وأن يضع يده في يد القيادة التي شجعت وباركت وأيدت فكرة الحوار.. وأن يعتبر هذا المشهد عيداً للوطن.. ألا يكفي انه يكسر حاجز بغيضاً بين فئات من المجتمع ومن المواطنين السعوديين بينهم من روابط الدين والانتماء ما يضعف أمامه أي مسائل خلافية غير جوهرية، إثارتها والعيش في ظلها وتضخيمها.. لا يصنع أكثر من ان يهدد لحمة مجتمع.. ويثير خصومات مفتعلة تستغل من قوى لا يعنيها مستقبل وطن ولا علاقات مجتمع ولا وحدة كيان.

وإذا لم نكن شهوداً حاضرين في قاعة المؤتمر، لنقترب من هاجس الحوار ومنطلقاته ورؤاه.. وهذه ربما كانت من نقاط ضعف تنظيم هذا المؤتمر، الذي ربما كان الاجدى ان يتوسع قليلاً ليستوعب شرائح اخرى من المثقفين والباحثين والعاملين في الحقل الفكري والثقافي/ الوطني.. إلا أن كل هذا التحفظ المبدئي له ما يبرره.. فنحن نخوض تجربة، مبدئية، نجاحها من المؤكد سيعزز امكانية أن يستمر هذا الحوار ويقوي ويضم أطيافاً أخرى لاحتفالية الحوار.. التي ستجد من رعاية القيادة ومسؤولية المؤتمرين والمتحاورين ما يعظم العائد على الناس والوطن.

ثمة جملة ملاحظات تستدعيها فكرة الحوار الوطني، وتنتظم في سياق الدعوة إليه، وتستهدف تعزيز العائد منه، يمكن ادراجها في النقاط التالية:

- ان القيادة السعودية، تستشعر حقيقة ان ثمة مخاوف من استغلال تلك العلاقة الملتبسة بين الطوائف أو المذاهب في المملكة العربية السعودية في هذه المرحلة الحساسة والحرجة، أكثر بكثير من احساس او استشعار بعض المثقفين الإسلاميين التقليديين، الذي برع بعضهم في شن حملات غير مبررة على فكرة الحوار، ناهيك عن امكانية الالتقاء على مسائل تعزز من لحمة الوطن ونسيج المجتمع. إن دعوة سمو الأمير عبدالله بن عبدالعزيز لهذا اللقاء الفكري، هي ليست من أجل الالتفاف حول مسائل سياسية آنية، تفرضها الحاجة الحرجة التي تمر بها المنطقة والظروف التي صنعتها اجواء الحادي عشر من سبتمبر ، ٢٠٠١.انها جزء من رؤية وطنية أكثر شمولا، تستهدف تمتين الوحدة الوطنية وتأسيس علاقات مختلفة أو غير ملتبسة على الاقل بين فئات المجتمع السعودي.. وهذا يستدعي انتاج خطاب وطني مختلف وغير قلق وغير محاب.. فالحفاظ على هذا الكيان الكبير وتعزيز وحدته التاريخية

وتكريس المبادئ التي قام عليها.. هي أولوية في أي مشروع سعودي، ولن يكون هذا اللقاء الفكري الذي يستهدف وفق ما جاء في كلمة سمو ولي العهد التشديد على الثوابت الوطنية التي لا يجوز القفز فوقها، بل تأكيدها والعمل في ظلها، لن يكون إلا من خلال تأسيس حوار حقيقي منتج وفعال بين قوى المجتمع ونخبه وفعالياته.

- فكرة الحوار، على المستوى المذهبي، ليست جديدة، وليست بدعة أيضاً.. وإذا كان هذا الحوار لا يستهدف احتواء أي مذهب إسلامي من قبل مذهب آخر، قدر ما يستهدف تفهم كل طرف للآخر.. واحترام كل طرف للآخر.. والالتقاء حول مضامين خطاب وطني مؤسس على مبادئ الإسلام ووفق تعاليمه.. لا يخضع قط للرؤى الاجتهادية الضيقة.. وان كان من المؤكد ان الوطن ليس فوق الدين بمفاهيمه وأسسه الكبرى.. لكن الحقيقة ان الوطن فوق الفرز أو التهميش أو محاولة اسقاط الآخر بحجة انه مختلف، المهم ان تؤسس فكرة الحوار للاحترام المتبادل، وتعظم عائد المشتركات الكبرى وهي عظيمة فعلاً... وان تنمي الإحساس بأن الناس شركاء في الوطن، لهم حقوق المواطنة وعليهم واجباتها.. اما مذاهبهم واجتهاداتهم فهي مسألة محترمة ضمن حدود الخاص، الذي لا يجب أن يهمش العام.. نحن بحاجة حقيقية لتربية وطنية جديدة.. ليس على طريقة المناهج الوطنية التي تقدم لنشئنا اليوم، حيث تضعف فيها المفاهيم الوطنية الفاعلة والمؤثرة في عقل النشء وسلوكه.. التربية الوطنية الحقيقية هي التي تربي ايضاً النشء على قبول الاختلاف.. دون النزوع لحمل الحجر في وجه المختلف مادام يلتزم بشروط الاختلاف ويحترم خصوصية الآخر ولا يتجاوز الثوابت الكبرى ولا يهدد السلام والأمن الاجتماعي. هذه التربية الوطنية التي يجب أن تربي التلاميذ على احترام تعددية المجتمع ضمن ثوابت الدين والوطن الكبرى.. تعلم أسس الحوار بين الأطراف المختلفة وتنمي عائد الحوار بدلا من لغة الاقصاء والتقرير التي لا تحتمل أي اجتهاد أو استشكال.

من المؤكد ستواجه فكرة الحوار، جملة عوائق، منها ما كان ضمن اجندة ثقافية يعمل عليها البعض، ممن يقفزون على حقائق الوطن وشروط المواطنة وعلاقات العالم من حولنا.. حتى يترآى لهم انهم يعيشون في عالم من صنعهم.. ولهم أن يقرروا في ما يشاؤون.. وهؤلاء لا يدركون حتما المخاطر التي تتهدد أي كيان يترك الفرصة ملائمة للعبث بالوحدة الوطنية.. من خلال اذكاء الكراهية للآخر أو الدعوة الى عزله أو تهميشه.. وليس لهم من الوعي السياسي ما يمكنهم من فرز الأولويات، وليس لديهم من مناهج البحث ما يطرون به ادواتهم في القياس والتحليل.. انهم في الغالب مستهلكون شرهون لكل افكار التعصب والتقوقع على الذات، يعيدون انتاجها من خلال ادبيات معروفة، لا تستهدف شيئا اكثر من براءة الذات واتهام الآخر وتعطيل فكرة أي حوار منتج أو فعال. أقدر كثيرا للعلماء والمثقفين المدعوين الذين استجابوا لهذه الدعوة، وأعتقد ان الفضل في نجاح حوار كهذا، هو ايضا من فضل استجابتهم واستشعارهم لأهمية الحوار الوطني حول المسائل المطروحة على طاولة المؤتمر. لم تثن هؤلاء سيل الانتقادات التي يمكن أن توجه لهم من الفريقين.. اذن نحن امام عقليات مختلفة تتعاطى مع الفكر الإسلامي من منظور اوسع من حجم الالتصاق بالفكر المذهبي.. وتدرك أن الحوار الوطني ليس تنازلا عن ثابت انه التأكيد الحقيقي للثابت والدفاع عنه والتعامل معه بدلا من التذرع بالخاص، والخوف من مواجهة الفكر المضاد.. الذي لا يصنع اكثر من تمتين الحواجز وزيادة الفرقة وتعسف الحقيقة واعطاء الفرصة المناسبة لذوي الأهواء لتكريس العلاقة المتوترة وما يستتبعها من ظلال قاتمة على مستقبل وطن، بذل الكثير من اجل بنائه، وتستشعر قيادته اليوم بحكمة ضرورة العمل على تجنيبه أي ضعف بل وتعمل جاهدة على تأسيس منطلقات للتطوير والاصلاح ومعالجة الأزمات التي يواجهها.. ولا يكاد يخلو الخطاب السعودي للقيادة اليوم سواء في الداخل او الخارج من التأكيد على مفاهيم الاصلاح وتحسين شروط الحياة والدخول بثقة الى فضاء مشاركة العالم قيم الحرية والانسانية والحقوق المدنية.. ناهيك عن مواجهة التقوقع والانكفاء. ان الذي يستشعر حقاً الحفاظ على هذا الكيان الكبير، الذي بذل من اجله الكثير وقد رسخ مفهوم الوحدة واستشعر عوائدها في كل ارجاء المملكة لن يتساهل قط في مواجهة بذور التطرف او حتى التهاون باعطاء

الفرصة لاذكاء خصومات مفتعلة، كثيراً ما تُستدعى بلا وعي وهي تستهدف نسيج هذا الوطن اولا واخيرا.. سواء ادرك المتورطون بهذا الخطاب هذا ام لم يدركوه.

- ان هذه الفاتحة للحوار الفكري الوطني.. تستدعي أن نقترح ان تطور الفكرة، وان تمتد، لتناقش قضايا وطنية ملحة، تخرج فكرة الحوار من حدود المسائل المختلف فيها الى حدود ابتكار وابتداع وسائل اكثر جدوى لمواجهة ازمات الداخل التي لا تحتاج هنا إلى تأكيد. وهذا ايضا يستدعي اقتراح ان يتبنى المهرجان الوطني للتراث والثقافة في دورته القادمة محور الحوار الوطني.. وان يكون هناك مؤتمر كبير، تتوسع محاوره وتنطلق دعواته في الداخل.. وهذه المرة دعونا نجعل هذا المؤتمر خاصا بالسعوديين..

دعونا نجعل الموسم القادم من اجلنا وكفانا دعوات مثقفين من كل مكان من خارج البلاد.. اننا اليوم احوج لفكرة هذا المؤتمر الذي من خلاله نستدعي الفكرة، ونطرحها على الباحثين والمثقفين والمسؤولين لنصل الى تصور مبدئي لميثاق وطني يوضع امام القيادة لتطويره أو تصويبه او اكتشاف كيف يمكن ان تكون البدايات. والبدايات دائماً صعبة، وعلينا ألا نضيق ببعض السلبيات التي ستفرزها محاولة كتلك.. فعلى قدر اهل العزم تأتي العزائم.. وعلى قدرها ايضاً يكون هناك نفس طويل لقبول اننا مازلنا سنة اولى حوار، ولا يجب أن نتصور ان بمقدورنا حرق المراحل أو القفز على الشرط الثقافي والتاريخي والنسيج الاجتماعي الذي ينتظمه مجتمع كبير كالمجتمع السعودي.. سنجد حتما بعض العنت والضيق وقد يكون الحل في نظر البعض ان هذا باب لا يفضي الا لمزيد من الجدل.. لكن الحقيقة اننا بحاجة للجدل لاكتشاف اين نقف.. وكيف يمكن أن نتحرك.. وما هي الوسائل المناسبة للحراك.. وكل هذا يجب أن ينتظم في عقد من الثوابت الدينية والوطنية التي تسمح حتما في البحث والاستشكال والطرح والاتفاق والاختلاف لكنها ستكون مسورة ومسيجة بمسألتين ثابتتين مقدستين.. هما ما يتعلق بالثابت الديني والمشروعية الدينية لأي حراك او تطوير والآخر الثابت الوطني الذي يؤكد الولاء للقيادة والاخلاص للوطن. دعونا نبتهج بهذه المناسبة، ونتفاءل بالمستقبل. دعونا نحلم بأن ثمة سنة حميدة شقت طريقها إلينا.. وان ثمة شيئا اسمه الحوار الوطني بدأ يدق ابوابنا.